من الشعر المنثور

فجر القـــبرة

« مهداة إلى صديق الأمير عمر الأيوبي »

للأستاذ خليل هنداوي

كثيرون يعرفون القبرة بشكلها الرمادي الأدكن وصوتها الرفيع المرنان ، ولكن القبرة من الطيور القريبة في حياتها وتأملها للحياة .... روحانيـة تبلغ أسمى ما تبلغه الروح ، ومادية تحط كثيراً ؛ ففي حالتها الأولى تراها تغزو أطباق الجو عند منبلج الفجر تردد الغناء سكرى بالجمال حتى إذا بزغت الشمس فزعت الى الأرض تفتش عن غذائها ، ذاهلة عن غنائها ، ومثل هذا المشهد قد يصور أحسن تصوير حالة الذين يرقون إلى شمس المعرفة بأرواحهم ثم لا يقدرون على مقابلتها فيهبطون .. فلا الأرض تذهلهم عن السماء ولا السماء تفصلهم عن الأرض ، ولا شوقهم بمنطفئ ، ولا أرواحهم بساكنة ... هؤلاء هم كهذه القبرة ؟ « خ . هـ »

أسمعها : اسمعها بعيدة عني ، دانية مني !

أسمعها يشق غناؤها الفضاء الذي تفتح جفناه

أسمعها يتسلل شعاع قلبها مع شعاع الفجر !

قد انجلت — يا قبرتي — غياهب الليل بعـد ما ظننت أن هذا الليل سرمد لا يزول

وانزاحت عن الأفق كتائب الظلمة بعد ما خلت أن هذه الألوان الربداء لا تحول

أراك تمعنين في التحليق . . .

حتى لا أرى أنامل الفجر تجذبك اليها

فاذا تركت في الجو بالأمس ؟

أشيئاً تتفقدينه كل مطلع فجر ؟

أم أمانة تستلينها من الفجر ؟

أرى جناحيك يرفان ويخفقان !

يربدان طوراً وطوراً يلتهبان

وصوتك الهازج المرن يصعد في السماء

تسمعه الأرض فتهتز قليلاً ثم يتوارى كأن لم يكن شـدو ولا شاد

هي سكرة قدسية يا قبرتي ترفعك إلى الأوج السامق

ترفعك على جناحي الشوق وتنطلق بلغة الغناء

فما أسمى هذه السكرة التي لا يتخللها صحو !

وما أبدع هذا الشوق الذي لا يطفئه وصال

أنت من فجرك أيتها القبرة في صعود دائم

أنت من شوقك في وصال قائم

تمجدين الشمس قبل بزوغها وترفعين اليها صلاتك وغناءك قبل شروقها

حتى إذا لمعت في الأفق ووقعت عيناك على نورها الخاطف . .

فررت إلى أطباق الأرض غاشية العينين ، واجفة الفؤاد !

ألا تتمهلين قليلا حتى تراك الشمس

وأنت في الأطباق العالية تغنين لها !

ألا تتمهلين حتى تتمتع عيناك بالكوكب الساطع

ويرتاح قلبك إلى من خفق للقائه شوقا وحنينا ؟

عينك لم تستطع أن تحتمل شعاع « الشمس »

وفؤادك ناء بافراغ شوقه للشوق

وفي اللحظة الأخيرة تراني جناحاك وعشيت عيناك

وتدحرجت على الأرض بعد أن رقيت معارج السماء !

ألم تتذوق لذة الشروق ؟

ألم تطمعي طمام ذلك العالم العلوي ؟

ألم يكشف لك عن خزائن ذلك الوجود ؟

الشوق والغناء والويل والعنـاء كلها تذوب تحت لوائك أيتها الشمس !

ما وصلك الذي تغنين به ؟

ما شوقك الذي ملأ الفضاء

ما سكرك الذي لا صحوة له ؟ إذا كان نور « المعرفة » لا تحمله عيناك !

أتخافين احتراقاً في الأضواء

أتهابين التطلع إلى نور الشمس ؟

أم تصلين كل يوم إلى الشمس ... وتقفين على بابها فاذا أطلت تواريت من وجهها المهيب ، وآثرت أن تنحطي وتتدحرجي صامتة ساكتة

كأنك كلما صعدت مرة ذهب جزء من روحك وراءها في الفضاء

وهكذا حتى تتوزع أجزاؤك كلها وتبلغي المرحلة الأخيرة